مجلة كلية الدعوة الإسلامية

مجلة إسلامية - ثقافية - جامعة - محكمة

العدد العاشر
1993م.

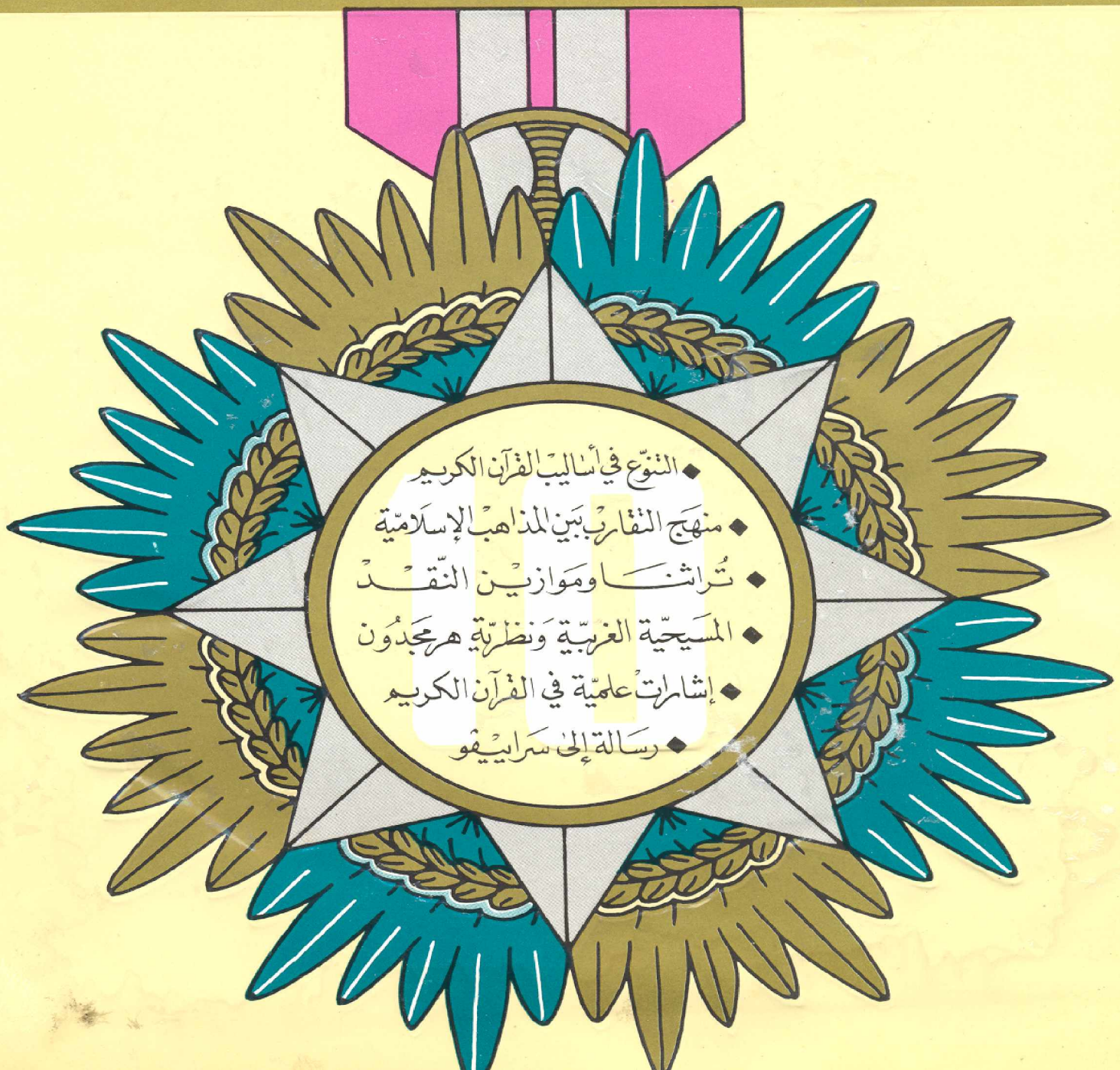

- التنوع في أساليب القرآن الكريم
- منهج التقارب بين المذاهب الإسلامية
- تراثنا وموازين النقد
- المسيحية الغربية ونظرية هرمجدون
- إشارات علمية في القرآن الكريم
- رسالة إلى سراييفو

مد الإسلام

تأليف

البروفسور توماس ملنتان ايرفنغ

أو (الحاج تعليم علي)

الدكتور عيسى علي العاكوب

تأليف البروفسور توماس ملنتان ايرفنغ أو (الحاج تعليم علي) صدر كتاب (مد الإسلام the tide of islam) أول مرة سنة 1979 م. عن مكتب المنشورات الإسلامية في لاغوس (نيجيريا)، ثم أعيد طبعه منقحاً سنة 1982 م. في سيدار رابيدس، في ولاية أيوا الأمريكية.

ترجع أهمية الكتاب الذي نحن في صدده إلى جملة عوامل، كل منها قمين بأن يضفي على الكتاب قيمة متميزة تستحق من القارىء المسلم أن يوليه عناية خاصة، ويخصه بقراءة واعية. ولعل في طليعة هذه العوامل المادة الغزيرة التي ضمها الكتاب بين جنباته، رغم أن عدد صفحاته (170) صفحة من القطع المتوسط. والحق أنه في مقدور الدارس أن يقول دون حرج إن الكتاب منجم ضخم من المعارف والمعلومات التي تغني تجربة القارىء المسلم وتزيده بصرا بعالمه الذي ينتمي إليه، ومن ثم التصاقاً به وحباً له. ولعله من الخير أن نعرض

على نحو سريع لمباحث الكتاب الرئيسة. فقد جاء الكتاب في مقدمة وسبعة عشر مبحثاً. على هذا النحو:

1 ـ حاضر العالم الإسلامي، وقد جعل المبحث بمنزلة تصدير عام.

2 ـ الأندلس والحملات الصليبية: المواجهة الأوربية للإسلام.

3 ـ الساحل العربي في شمال أفريقية: أول اتصال أمريكي بالعرب.

4 ـ عبر الصحراء: ذهب غينيا وجمهوريات الخلال(*).

5 ـ الساحل الموسمي: حول رأس الرجاء الصالح إلى شرقي أفريقية.

6 ـ وادي النيل: مصر والسودان.

7 ـ الهلال الخصيب: حيث طلعت شمس الحضارة ـ وحيث قد تأفل.

8 ـ «جزر العرب»، النفط والرمال، البقاع المقدسة.

9 ـ التصوف، الأجر، البسط: فارس.

10 ـ الآثار العثمانية: من الامبراطورية إلى الجمهورية المصغرة.

11 ـ سجن الأم: التتار والترك في أعماق آسيا الوسطى.

12 ـ ورثة المغول: الهند والباكستان، والملحق الصيني.

13 ـ حيث أبحر السندباد: ثلاث أمم جزرية.

14 ـ في بقية العالم: الإسلام من جديد.

15 ـ العقائد والممارسة: حديث مع غير مسلم.

16 ـ الفن والعمارة والأساليب.

17 ـ خاتمة: مهمات تواجه الإسلام.

(*) هو العود الذي يتخلل به، هكذا سمى المؤلف هذه البلاد.

كما ضم الكتاب عددا من الخرائط والرسوم التوضيحية والصور التي تمثل نتاج العبقرية الفنية المستضيئة بنور التوحيد.

وفضلا عن الحشد الهائل من المعارف الذي زخر به الكتاب لا بد من التعريف بمؤلفه، بما يضيف إلى قيمة الكتاب. فالبروفسور «الحاج تعليم علي» مسلم أمريكي تدل عبارته على صدق في النية، وإخلاص في الطوية، وحرص على مصلحة الإسلام والمسلمين، حيث يتراءى لك الرجل في أثناء مؤلفه يكتب بوحي من القلب العامر بالإيمان، المضاء بنور اليقين، مع خبرة عميقة بتاريخ العالم الإسلامي منذ بداياته إلى أواخر قرن الناس هذا. حصل المؤلف على درجة الدكتوراه في «دراسات الشرق الأدنى» من جامعة برنستون، وأسس دراسات الشرق الأدنى في جامعة مينيسوتا. وفي سنة 1969 م صار «استاذ» الإسبانية والعربية في جامعة تنيسي، ثم تقاعد أستاذا فخريا سنة 1980 وهو زميل أبحاث فولبرايت في بغداد (1956 - 1957). وقد سافر وحاضر في مختلف ديار العروبة، وكذا في إيران وباكستان ونيجيريا. قادته المؤتمرات وأسفار المحاضرة إلى جنوبي أفريقية

والبرازيل. والبروفسور الحاج تعليم علي عضو في عدد من الجمعيات الثقافية، من مثل «الجمعية الشرقية الأمريكية» و«جمعية دراسات الشرق الأوسط» و«معهد الشرق الأوسط» أما ميادين اهتمامه فهي: الحقبة العربية ـ الإسلامية في تاريخ إسبانيا، والعالم الإسلامي المعاصر. وهو مؤلف كتاب «صقر إسبانيا» في سيرة القائد العربي عبد الرحمن الداخل. انتهى البروفسور الحاج (تعليم علي) منذ سنوات من الترجمة الأمريكية الأولى لمعاني القرآن الكريم، وهو عمل اقتطع من حياته خمسة وعشرين ربيعا. نشرت مقالاته الكثيرة في الولايات المتحدة وخارجها. وحين لا يكون البروفسور الحاج (تعليم علي) في المحاضرة والمشاركة في المؤتمرات يرمي عصا الترحال في سيدار رابيدس، في ولاية أيوا الأمريكية، حيث يعكف على التأليف والكتابة، وحيث ثمة جماعة إسلامية ذات شأن. ولا غنى عن ذكر بعض مجالات التفوق الأُخر التي حظي بها الكتاب. ومن ذلك:

1 ـ عمق النظر إلى مشكلات العالم الإسلامي وتقديم مقترحات لحل كثير منها.

2 ـ تقديم وصف حي لإسهامات العالم الإسلامي في الثقافة العالمية يمتد من فجر الإسلام إلى الوقت الراهن.

3 ـ عرض شامل سريع لأحوال المسلمين في رقعة جغرافية واسعة تشمل آسيا الجنوبية والوسطى، وأفريقية الشمالية والاستوائية، كما يقدم حقائق عن حال الإسلام والمسلمين في كل من الأمريكيتين وأوربة. وهي حقائق يجهلها الكثير منا.

4 ـ يحاول الكتاب أن يقدم عرضاً سريعاً للآداب والفنون والتاريخ والاقتصاد في المنطقة العربية.

يذكر المؤلف في التصدير أن غير المسلمين يضيقون بالإسلام، لأنه يمتلك نظاماً ذا قيم، وهذه القيم خطيرة إذا ما أخذت بجدية، لأنها تكون إذ ذاك أساساً للسلوك العملي. ويتحدث عن الإسلام بوصفه عاملاً موحداً بين الشعوب التي

انضوت تحت لوائه. ويتحدث عن مد الإسلام، فيقول: «إن الإسلام بلغ أقصى امتداد له عندما كانت دياره قاعدة لثلاث إمبراطوريات عظيمة متزامنة: العثمانيين في شرقي البحر المتوسط، الصفويين من الشمال الشرقي للعراق حتى هضاب آسيا الوسطى، إمبراطورية المغول في شمال الهند». ثم يتحدث عن ضيق الغرب القديم بذلك فيقول: «ثم جاء البرتغاليون حول رأس الرجاء الصالح ليقلبوا هذا التوازن الحضاري، وبدأت روسيا تزحف إلى أدنى الفولغا وتبتلع التتار المسلمين في إمبراطوريتها الفتية». ويتجلى حب البروفسور الحاج (تعليم علي) للعرب في مواطن كثيرة، وبخاصة عندما يعيد الأسماء المحرفة في المجتمعات الإسلامية الأعجمية إلى أصولها العربية، إذ يقول مثلا عند الحديث عن بعض أسماء التتار السوفييت: «إن نوريف روحمانينوف ويوسوبوف أسماء تتارية مشهورة، جذورها العربية لا تزال ماثلة في زخارفها السلافية». وكثيراً ما يشير إلى أخطار تهدد المسلمين، كأن يقول مثلا: «إن الشرق الأوسط يواجه اليوم انحلالاً خلقيا، على غرار ما نرى في ازدياد تعاطي المسكرات والحشيش». وكقوله: «إن الشباب يظلون متطرفين وهم في حاجة إلى توجيه يتحركون في إطاره».

ويقدم المؤلف مقترحات حلول لكثير من المشكلات كأن يقول: «على المسلمين أن يتعلموا التحكم في التغيرات التي تواجههم، وعليهم ألا يقمعوها شريطة ألا تناقض مبادئهم». ثم يضيف قائلا: «هناك خير كثير في الدين الذي ينشر من خلال قدرته على جذب أخيلة الناس وأرواحهم وعلى توجيه الحياة اليومية، وهذه ملامح لا تحتاج إلى تغيير».

ثم يتحدث المؤلف عن محاولات الغرب للسيطرة على المسلمين والوسائل المتخذة لذلك، فيذكر أن هذه المحاولات تمت من خلال علماء الإنسان «الأنثروبولوجيين» والمبشرين، وعلماء الاجتماع، وعلماء الاقتصاد، وهؤلاء جميعاً أساؤوا فهم الإسلام، أو آثروا أن يفهموه بطرائقهم الخاصة. ويقول: «تمثلت خطة الغرب إزاء الإسلام في استنزاف الثروة الإسلامية والعمل على تجزئة البلدان، على غرار السياسة المتبعة في أمريكا اللاتينية».

ويشدد البروفسور الحاج (تعليم علي) النكير على الغرب الـذي لا يعرف الإنصاف والعدل فيقول: «في سنة 1918 م علمونا كم كان الألمان» مرعـبين وكم كانت الحرب عادلة، وكلمة «حملة صليبية» لا تزال تعبيرا مستحسنا في الدوائر الغربية، لكنها منفردة في الشرق الأوسط. وقد ساوت الوقاحة الأوربية المسيحية بـالحضارة، وهي غـطرسة تشمئـز منها البلدان الإسـلامية، وبخـاصـة بتكتيكهـا العسكـري المدمـر، والدهـاء السياسي البغيض الـذي أنشـأه المستعمـرون في المستعمرات، وأكثر من ذلك كله تلك العادات السيئة والخطيرة التي يفسحون لها المجال ويغذونها. إننا في حاجة إلى معايير جديدة ندرس بها العالم الجديد الذي نفكر فيه، وفي حاجة إلى أساتذة جدد ليعلمونا».

ويتحدث المؤلف عما قدمته حضارة العرب المسلمين إلى الغرب فيقول: «كان كتاب الفيلسوف العربي الإسباني ابن رشد يُدرس في جامعة مكسيكو حتى سنة 1831 م، عندما بدىء بإلقاء ضوء جديد في الممتلكات الإسبانية السابقة» ويرى أن الأمريكيين تلامـذة أوروبة النجبـاء، وهم يرون بـأعين أسلافهم ويتحسسـون بقلوبهم. ومن هنا «تنسى أمريكا أو تتناسى هذا التراث العربي الإسلامي، لأن الكتب المدرسية فيها يكتبها أوربيون، أو مؤرخون تلقـوا تعليمهم في جامعـات بريطانية أو ألمانية أو فرنسية، وينقل تحيزهم الاستعماري إلى الصحف الأمريكية والطلاب الأمريكيين».

ويشير المؤلف إلى شيء من أوجه التطور في بعض البلدان الإسلامية في الشمال الأفريقي، ويخص الجماهيرية الليبية بملاحظة مهمـة: «كان ثمـة تطور متفاوت في بلدانه المختلفة، اقتصاديـا واجتماعيـا، حيث تبدو ليبيـا الآن الأكثر خطورة، رغم أنها كانت منذ عقد مضى، وقبل ذلك تحت سلطة الإيطاليين، في وضع مزر». ويقول بشيء من التحديث: «إن سكان الشمال الأفريقي يحتاجون إلى تقرير مصيرهم بأنفسهم وإلى منع الآخرين من أن يملوا عليهم هذا المصير».

ويتحدث المؤلف عن اتهام الغربيين للعرب والمسلمين بالإرهاب، ويـرد على ذلك بالحجة الدامغة والمنطق السديد المعزز بالوقائع. يقول: «من السخر أن

مناحيم بيغن لا يزال شخصية على قدر كبير من التأثير في سياسة إسرائيل بدلاً من أن يقتل ويحاكم في نـورمبيرغ. وقد شرع الفرنسيون في استخدام إرهاب الطائرات عندما اختطفوا بن بلا، الرئيس المنتظر للجزائر، وأربعة من رفاقه، ومارسه اليهود على نطاق واسع في حياتهم.

ويقول المؤلف إن تأثير المسلمين الإسبان «المُدَجَّنين» وحرفهم يمكن أن يطالعك في أبنية منطقة الكاريبي، وفي البرازيل وفي مرتفعات البيرو وبوليفيا. وقد جيء بهؤلاء عبر الأطلنطي في القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر في صورة حرفيين يستدعيهم العمران الواسع الذي شهدته الإمبراطورية الإسبانية فيما وراء البحار. ولأنه لم يسمح لهؤلاء باصطحاب زوجاتهم من إسبانيا، فإن دماءهم وعقيدتهم قد تبعثرت في مختلف أصقاع أمريكا اللاتينية. وفي مقدورك أن تلمح أثار صنعتهم ومهاراتهم في الـزخرفـة على الحديـد والقرميـد والخشب بدءاً من مكسيكو وكوبا إلى كاليفورنيا وفلوريدا. ويلحظ المرء عناية واضحة لدى البروفسور الحاج (تعليم علي) بتحديد أصول العناصر البشرية المنتمية إلى أروقة إسـلامية وعربية في تلك الأصقاع من الأمريكيين. ويقول مثلا: «في جزيرة تـرينيداد في غرب الأنديز يسمى المسلمون هناك ماندينغور، نسبـة إلى شعب غربي أفـريقية الذي ينتمون إليه.

ويتحدث المؤلف عن حاجات المسلمين الغربيين، فيقول: «يحتاجون إلى ترجمات مختصرة ومأمـونة للقـرآن الكريم، تـرجمات تكـون خلواً من رطانـات المستشرقين وانحيازهم، بالإضافة إلى كراسات مبسطة وأدبيات تطبـع على نحو فني وجـدير بـالقبـول». ويخصص المؤلف المبحث الخـامس عشـر «العقـائـد والممارسات» لحديث مع غير المسلمين، أي للتعريف بالإسلام. حيث يعرض لأركان الإسلام الخمسة، ويقول في مطلع هذا المبحث «لقـد آن الأوان لدرس الإسلام من داخله، ومن أجل هذا (ولفهم ديننا من وجهة نظر إسلامية، بعيداً عن ملاحظة شكله الخارجي أو امتداده الجغرافي، أو الاقتصادي أو السيـاسي. لقد أمعنا النظر في العالم الإسلامي وما قدمه هذا العالم، وعلينا الآن أن ننـظر إليه

بوصفه وحدة منظمة وروحية. . . ». ويشير المؤلف إلى أنه قد وجه إلى الإسلام نقد كثير على مدى السنين وحتى القرون، وهو نقد يكرر الشبهات المعروفة حول الزوجات الأربع، والعفاريت التي تخرج من الزجاجات على شاطىء ما، و«الحوريات» اللائي يلقاهن الشعراء الفرنسيون في الجنة، والدراويش الجوالين، الخ. واليوم استبدل بهذا الفولكلور قصص أحدث عهداً حول سيارات «الكاديلاك» وآبار البترول، وهذا الموقف في الغرب جزء من ميراث الحروب الصليبية.

ثم يعرج المؤلف على الفن والعمران والأساليب الفنية، فيذكر أن ميدان الفن هو الميدان الذي يعرف فيه الإسلام على نحو محبب، ويمكن تذوقه إلى أقصى حد. ويرى أن المسلمين قد حققوا الكثير في هذا النطاق من النشاط البشري، ويتحدث عن استخدام المسلمين للون وتوازنهم في التصميم والشكل. ويشير إلى أن فن الخط غير موجود الآن في الغرب، خلا بعض مظاهره في الإعلانات. ويذكر أنه في مجال الشعر قدم العرب والفرس أشعاراً كثيرة، وكذا فعل المغول في اللغة الأوردية. ويشير إلى النثر الفني عند المسلمين فيذكر ألف ليلة وليلة، ويذكر ما يعانيه المسرح العربي من مشكلات التباين بين اللغة الفصيحة واللهجات العامية، ثم الحاجة إلى تقليد مسرحي. كما يذكر معارض الدمى ولعب خيال الظل، ويقدم ملاحظات قيمة تتصل بالفنون الإسلامية، ويشير إلى أن التعبير الفني عند العرب آثر دائما الشكل الهندسي على حقائق الطبيعة، ولا يشجع الإسلام تمثيل الأشياء الحية، ومن ثم يقحم الفنان في عالم التجريد والتصميم الزهري المعقد. ويوضح أن كراهية تصوير الأعيان تقيد أي تشكيل بشري للمطلق، ذلك لأن الإسلام يحرم العبادة الوثنية، حيث يذكر بالأثر: «لا تدخل الملائكة البيوت التي توجد فيها الكلاب والصور». ثم يتحدث عن فن النحت عند المسلمين ويبين أنه يفتقر إلى الناحية التشخيصية نفسها، فالأسود في قصر الحمراء في غرناطه قريبة الشكل من الكلاب، أو من أي حيوان من ذوات الأربع، وهو ما يوحي بقصد إلى شيء من التغيير، ويمضي إلى القول: إن أحسن رسم طبيعي قدمه المسلمون إنما قام به الإيرانيون في منحوتاتهم الرائعة، ثم يتحدث المؤلف عن قابلية الفنون الإسلامية لاستيعاب فنون الأمم الأخرى أو الإفادة منها، ويذكر

الروائع العمرانية الإسلامية من مساجد وقباب ومآذن يشهدها المرء حيث يمم في أصقاع دنيا الإسلام، في أصفهان ودلهي ولاهور وقرطبة وغرناطة وإشبيلية والقاهرة ومراكش ودمشق والقدس.

ونجد في المبحث السابع عشر الأخير «الخاتمة: مهمات تواجه الإسلام» حيث يشير المؤلف إلى أن الدول المهزومة كفرنسة واليابان لا تزال إلى اليوم لا تفهم الإسلام جيدا، وأن على فرنسة خاصة أن تحرر نفسها وتعزف عن الدراسات الاستعمارية العقيمة التي جرت عليها الويلات في الجزائر وسورية، في حين أن اليابان ليس لديها دراسات خاصة بها حتى الآن، أما أمريكا ففي حال أكثر سوءًا لأنها مضللة بتأثير جماعات الضغط المعادية للعالم الإسلامي.

وينبه المؤلف إلى أننا نحن ـ المسلمين ـ في حاجة إلى قادة قادرين على توجيهنا بالمعرفة والفكر المستنير، ويقول: إن الجماعة الإسلامية أو رابطة الشعوب الإسلامية، الأمة القديمة، قد برزت الآن في شكل مختلف، والمجموعة الإسلامية في الأمم المتحدة غدت قوية جداً إلى درجة أن الصهاينة وأتباعهم يهاجمونها الآن ويَدِينُون الأمم المتحدة، ويصفونها بالمتفسخة والبالية، رغم أنهم قبل ربع قرن فحسب كانوا يزعمون أن الأمم المتحدة عرَّافتهم التي أعطتهم عصاها السحرية المشروعية، مع أنهم تجاهلوا دائما أية قرارات أو تعليمات قدمتها لهم العرافة بشأن سلوكهم إزاء جيرانهم، ويرى المؤلف أن أفول نجم حضارة العرب والفرس والترك والمغول يرجع أساساً إلى برود الحماس الذي نشر الإسلام بسبب الجبرية المتنافية لدى جزء من الناس، ويقول: إنه يواجهنا نفاق مفكرينا وخداعهم، وبخاصة من المسيحيين اللبنانيين وعلماء الاجتماع الذين لا يمثلون الشرق الأوسط حقيقة، وقلما يفهمونه، ومن ثم فإننا في حاجة ملحة إلى إعادة النظر في الأدبيات القديمة التي نشرت في تلك المنطقة.

فحتى في آخر طبعات كتبهم يحس المرء بكابوس الماضي، كلما ظلت المدرسة القديمة للمستشرقين تتقاضى الهبات وتكتسب الولاءات، وليس بعسير أن يدرك المرء أن هؤلاء الخبراء «المزعومين لم يحنو رؤوسهم خشوعاً في الصلاة لله

الواحد الأحد، ونراهم بدلاً من ذلك ينمون الاختلافات المذهبية أو الممارسات الباطنية، التي يمكن أن توجهها قوى الاستعمار أو تستغلها، كالأحمدية في الهند البريطانية، أو «المرابطين في شمالي أفريقيا وغربها، أو البهائية في إيران وإسرائيل، ويضيف المؤلف أن أعمق معين للقوة والكمال لدينا هو الصلاة، وينبغي أن تؤدى الصلاة بفعالية على مستوى الأفراد والأمم، ونحتاج إلى الثقة بأنفسنا، وإذا ما ظفرنا بها أمكننا مرة أخرى أن نوجه دفة سفينة العالم، في القرن الخامس عشر الهجري، ويمكن القول في الختام إن كتاب «مد الإسلام» خيط واضح في نسيج بردة الإسلام، ونقطة وضاءة في زوايا المكتبة الثقافية الإسلامية، وهو خليق بأن يوليه القارىء المسلم شيئاً من اهتمامه، ويقرأه على مكث وعلى نحو واع، ليزداد علماً، ومن ثم يزداد قوة.

(*) يقصد من يعرفون بالإسلام في أمريكا، ومن يكتبون تاريخ العرب والإسلام دون طوية سليمة.